المحاضر الثانية:

علمية التاريخ

هل يمكن تطبيق منهج العلو م الطبيعية على التاريخ، وهل يمكن أن ترتبط وقائع التاريخ ارتباطا عليا بما تتضمنه العلية من ضرورة وحتمية؟ أن يصل التاريخ إلى أحكام كلية لها صفة العموم والشمول؟ ومن ثم تمكن التنبؤ بما سيحدث في المستقبل؟ أم أن التاريخ ينفرد بمنهج خاص به؟ من هذه الإشكالية ظهرت نزعتين، النزعة الطبيعية في التاريخ ز النزعة التاريخية للتاريخ.

1-النزعة الطبيعية:

لقد انعكس أثر ما أحرزته العلو م الطبيعية من تقدم منذ القرن السابع عشر على العلوم الإنسانية ولما كان أسباب هذا التقدم انتهاج العلوم الطبيعية " المنهج التجريبي".

و يرجع الفضل في تقدم العلم الطبيعية إلى فلاسفة و علماء، أما الفلاسفة فقد شغلوا بالمنهج، وأما العلماء فقد اهتموا بالموضوع، على رأس الفلاسفة بيكون و لوك ، و على رأس العلماء نجد جاليليو وكبلر و نيوتن.

فقد انعكس هذا على العلوم الإنسانية وأخصها على علم التاريخ، ويمكن حصر جوانب الانعكاس:

1-**منهج العلم**: جمع اكبر عدد ممكن من الوقائع التاريخية بهدف الوصول الى أحكام كلية.

2-**غاية العلم**: غاية برغماتية "عملية" تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، أما التاريخ فالهدف تزويد الإنسان بأحكام تمكنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرته بالماضي.

3- **استقلال العلم عن الدين**: إذ استبعد المؤرخون النظرة " الأخروية" التي تجعل غاية التاريخ خارج نطاق العالم، وإنما في العالم الآخر. لقد أصبح هدف مسار التاريخ في نطاق العالم الحاضر، كما أصبح التاريخ ممثلا لأفعال الإنسان لا لأية قوة غيبية.

لقد كان لبيكون من الناحية المنهجية، فإن جون لوك ودافيد هيوم أثرهما في الأسس الفلسفية لكل من الطبيعية والتاريخ، وتتلخص فيما يلي:

1- إن التجريبية تعني أن تتوقف المعرفة على الموضوع المدرك، بحيث لا يصبح للذات المدركة، ودور ضئيل، وإذا كانت المعرفة التاريخية تقوم على علاقة بين طرفين: المادة التاريخية وعقل المؤرخ، فإن يعني أن المعرفة التاريخية تقوم على المادة التاريخية لا عقل المؤرخ.

2- أن إنكار جون لوك و دفيد هيوم لفطرية الأفكار جعلها على قرب من التاريخ، لأن المادة التاريخية واقعية تجريبية لا مجال فيها للقول بفطرية الأفكار، و كان ذلك اقتراب التاريخ من العلم الطبيعي.

في خضام التقدم العلمي اصطدم بالسلطة الدينية إذ لقيت آراء كوبرنيكوس في الفلك صدمة في الأوساط البروتستانتية على دوران الأرض، لذا أدين جاليلو عدة مرات. ولقد عرف القرن السابع عشر عدة اكتشافات علمية أهمها قوانين نيوتن في الطبيعة الفلكية...

هكذا سرت في الدراسات التاريخية ما يسمى بالنزعة الطبيعية، نزعة تمثل انعكاس منهج العلم الطبيعي على التاريخ، وأصبحت هذه النزعة تنشد أن يصبح التاريخ علما بالمعنى الفيزيقي للعلم:

أ- منهج تجريبي استقرائي وإن كان غير مباشر في حالة التاريخ.

ب- حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من المعلومات التاريخية.

ت- حصر الواقعة المراد دراستها زمانا ومكانا.

ث- الوصول إلى أحكام كلية يمكن الاستفادة منها في الحاضر و المستقبل.

و قد مثل عصر التنوير النزعة الطبيعية في التاريخ في مظهرين:

أ- **الروح النقدية**: التي سرت إلى الوثائق والمستندات لا يحول دون ذلك قداسة نص، إذا أعاد هذا العصر الثقة إلى المعرفة التاريخية.

ب- **الاهتمام بالجانب الحضاري: إذ** لم يعد التاريخ سيرا لأشخاص أو تأريخا لأعمالهم و حروبهم، و إنما حضارة الأمة هو الذي ي عبر عن شخصيتها كما يرى مونتسكيو.و هكذا مكن لعصر التنوير أن يقدم بفضل انعكاس روح العلم على التاريخ.

النزعة التاريخية:

يعتبر "هردر" رائد الحركة التاريخية أو بالأحرى نزعة انفراد التاريخ واستقلال منهجه عن منهج العلوم الطبيعية. إذ انعكس تكوينه الديني الروحي على نظرته للتاريخ، لقد تكافلت عوامل دينية وفلسفية وأبية لتجعل منه رائد الحركة التاريخية المعارضة لعصر التنوير (عصر يفترض وحدة الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان، ويقيم قيما مطلقة يفرضها على كل العصور) لكن يرى أنه لا تشابه لدى أمة واحدة، والمؤرخ الذي يلاحظ التشابه ويتفاعل عن التباين إنما يسئ فهم واقع التاريخ)

لذا فلا يمكن التعرف على روح الأمة و شخصيتها بمنهج العلو م الطبيعية، لأن هذا لا يكشف إلا على ما هو ظاهري خارجي، أما الماضي التاريخي فهو واقع روحي لا يمكن التعرف على الروح إلا بالروح، إذ لا يتسنى فهم ذلك من خلال الكليات المجردة كما هو الحال في العلوم الطبيعية.

استمرت النزعة التاريخية التي تتبنى استقلال علم التاريخ و منهجه عن العلوم الطبيعية، إذ نجده أيضا عند **فيلهم دلتاي** إذ يرى أن علاقة الإنسان بالتاريخ نتاج الماضي إذ أن الحياة البشرية لها طابع استمراري، كل لحظة ترتبط بأخرى في وحدة متكاملة. وفي الحياة الإنسانية أيضا التغير والتنوع في الزمان. كما نجد أنات الزمان لدى الإنسان في ديمومة واتصال، ولا نجد هذا الاتصال في العالم الطبيعي حيث أنات الزمان وتكرارها وتشابهه.

وهكذا، أصرت المدرسة التاريخية إذن على التفرقة بين العلوم الطبيعية وبين التاريخ، وتتضح هذه التفرقة لدى **فيلهم فيندلباند** الذي ميز بين علوم واضعة للقوانين وعلوم مصورة للأفكار. فالأولى، العلوم الطبيعية واضعة للقوانين لأنها تهدف إلى صياغة قوانين عامة، إذ تدرس ما يتكرر على نمط واحد، كما أن العالم يهدف إلى المعرفة. أما الثانية، العلوم الإنسانية ولها مناهج مختلفة فهي مصورة أفكار، ومنها علم التاريخ، فهي تدر ما حدث مرة واحدة ولا يحدث ثانية. أما المؤرخ، يسعى إلى التقييم.

و لقد اكتملت النزعة التاريخية لدى المفكر الايطالي بندتبو كروتشه الذي انتقد الأسس التي تستند إليها النزعة الطبيعية.إلى جانب هؤلاء نجد كولجوود من أبرز المؤرخين المعاصرين الممثلين للنزعة التاريخية، و هو يتفق مع كروتشه في عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ،لأن الواقعة التاريخية ليست معطاة كما هو الحال في العالم الطبيعي، و لأنه أيضا لا تاريخ للطبيعة.

كما أن التاريخ ليس مجرد جمع وثائق ومستندات أي جمع المادة التاريخية، فالمؤرخ لا ينظر إلى مادته التاريخية نظرة برانية، وإنما ينظر خلال الوقائع ليكشف الفكر الذي حركه. عندما يدرس نظرية فيلسوف، إن مجرد قراءة النص في لغته غير كاف، فلا بد للمؤرخ أن يستوعب المشكلة التي تشكل نظرية الفيلسوف، وأن يدرس النظريات البديلة التي يمكن أن تقدم حلا للأشكال.

و هكذا انتقدت النزعة التاريخية قول الوضعيين، الطبيعة والتاريخ على حد تعبير هيجل موضوعات متمايزان، و ليس للطبيعة تاريخ لأن ظواهر الطبيعة ليست أفعالا إنسانية، فلا تاريخ إلا لأفعال الإنسان، بينما تخضع الطبيعة لعالم الحتمية على حد تعبير لوتزة، فالتاريخ هو عالم الحرية، وإذا كانت الطبيعة تحددها مقولات: المادة و المكان و العلية، فإن مقولات التاريخ في الإنسان المكان والزمان و الفردية.

كما يستند هذه النزعة على عدة حجج لاستقلال التاريخ عن العلوم الطبيعية، ويتعذر معه تطبيق المنهج الاستقرائي عليه:

1- في أن التاريخ ل يستند إلى الملاحظة وإنما إلى بعث الماضي.
2- لا حتمية في وقائع التاريخ (عامل المصادفة أو أنف كليوباترا)
3- تتميز بفردية أحداث التاريخ، إذ تتعذر استخلاص قوانين كلية منها أو التنبؤ بها.
4- لا مجال أو الأحكام الكلية في التاريخ.